

المحاضرة الثانية نظرية القارئ في النقد الحديث

د. شيماء جبار علي

جمهورية العراق / جامعة الأنبار / كلية
التربية للبنات / قسم اللغة العربية

التخصص الدقيق : نقد حديث

التلقّي المصطلح والمفهوم .

يُعدّ مصطلح التلقّي من المصطلحات النقديّة التي أثارت اختلافاً كبيراً بين النقاد ، من حيث عدم اتفاقهم على مصطلح واحد ، كما أن المنظرين للتلقّي وإن كانت آراؤهم تصب في اتجاه واحد فقد اختلفوا فيما بينهم اختلافاً دقيقاً ، كما هو الحال بالنسبة (لروبرت ياوس) الذي يمثل اتجاهًا خاصاً بجمالية التلقّي ، (وولفجانج إيزر) كونه يمثل اتجاهًا خاصاً بنظرية التأثير الجمالي ، إلا أنهما اتجاهاً يكملان بعضهما في إطار نظرية التلقّي أو الاستقبال .

اشكاليات النظرية .

فالدارس لنظرية التلقّي يجد نفسه إزاء إشكاليتين تتمثلان في ؛
أولاهما : إشكالية تخص المصطلح وتعدّده نظراً تعدّد الترجمات واختلاف المشارب ،

ـ **والثانية** : إشكالية تخص النظرية في حدّ ذاتها ، وتدور حول كونها نظريات مختلفة لمصطلح واحد ، أو اصطلاحات متعدّدة لنظرية واحدة وقد اصطلح للتلقّي مصطلحات متعدّدة منها (الاستجابة ، والاستقبال ، والتلقّي ، والتأثير ، والقراءة ، والتقبّل) وكلها تنطوي تحت مصطلح واحد هو التلقّي ، وهي مصطلحات يصعب الفصل بينها .

الاصول التي انحدرت منها النظرية .

1_ وإذا حاولنا أن نضع مفهومًا للاستجابة والاستقبال نجد أنّ **مفهوم الاستجابة** " ذو أصول منحدرّة من نظريات **علم النفس** ، وقد كانت الاستجابة إحدى الإجراءات الأساسية في المدرسة السلوكية ، وعلى الرغم من عناية ايزر بهذا المفهوم إلا أنه يُعدّ جزءًا من كلّ ، وهو يستعمله بعد أن يفرغه تمامًا من محموله النفسانيّ بالنسبة لنظريته .

2_ أما **مصطلح الاستقبال** فهو الآخر يعاني من إشكال في " ثلاث لغات أوروبية هي : الألمانية ، والفرنسية ، والانجليزية ، على النحو الذي أشار إليه يابوس ، حين وجد أنّ المصطلح في الفرنسية والانكليزية يتضمن معنى الاستقبال الفندقي ، في حين أنّه ينفرد بإشارة جمالية في اللغة الألمانية " ويمكن القول إنّ الاستجابة حالة تصحّب المتلقّي بعد الاستقبال أو التلقّي من خلال ردود الأفعال التي يُصدرها ، أما الاستقبال فهو فعل يرتبط بالقارئ وفعل العمل الأدبيّ فيه .

ولعلّ **الفرق بين التأثير والتلقّي** يكمن في كون **التأثير** يرتبط بالنصّ ، أما **التلقّي** فيرتبط بالقارئ أو المتلقّي أو المرسل إليه أو المتقبّل ، والتأثير من طرف النصّ يكون من خلال بنية اللغوية وبنيته التاريخية معًا.

3. أما **مصطلح القراءة** الذي ينضوي تحت التلقّي فهو الآخر اختلف في تحديده كونه من أكثر المصطلحات رسوخاً وتداولاً وغموضاً وافتقاراً للدقة، ذلك أنّ القراءة عملية معقّدة وشائكة تشبه عملية الإبداع ذاتها ، إضافة إلى امتداد مصطلح القراءة مثل غيره من المصطلحات إلى حقول معرفية أخرى خاصة الفلسفة ، إذ أنّ قراءة النصّ تشبه قراءة الفيلسوف للوجود ، كون القراءة ليست قراءة واحدة ، وغير ثابتة ، إنّها قراءة متعدّدة ومفتوحة ، وقابلة للتطوّر والتغيّر والتعديل من مسارها ، وبهذا تكون القراءة فعلاً غير عادي كونها عملية مشاركة وتفاعل ، بل هي إضافة ؛ هذه الإضافة هي ما يمكن أن نسميه بالمتعة التي يشعر بها القارئ أثناء القراءة وقد أنتجت الثقافة العربية مصطلحاً يدلّ على مفاهيم التلقّي وهو مصطلح (**التقبّل**) الذي اقترحه د.شكري المبخوت في كتابه (**جمالية الألفة**) ، إلا أنّ مصطلح **التقبّل** يحمل مدلولاً قيّمياً يدلّ على إصدار الأحكام الذاتية التي تخضع لعمليات ما قبل الفهم ، وهذا ما يتنافى مع دعوة كل من يابوس و ايزر المتفكّعة مع إنجازات هوسرل والداعية إلى تهشيم هذه القبليّة، والاعتماد على الفهم بوصفه بنية عقلية.

كذلك ترتّب على اختلاف مصطلحات عملية التلقّي اختلاف الاصطلاح حول القائم بالعملية ؛ المتلقّي ، وتعدّدت تسمياته وأنواعه في النقد الغربي من ؛ متلق إلى مرسل إليه إلى قارئ ، وهذا الاختلاف وُجد قبل ذلك عند النقاد العرب بقرون ، إذ كانت تردّ في نصوصهم ألفاظ تدل على المتلقّي ، مثل توظيف لفظة (**النفس**) ، إذ يشير هذا اللفظ إلى الإنسان وما يعتمل بداخله من مشاعر، وكأنّ الخطاب الأدبيّ موجه بذلك إلى جوهره وأعماقه لا إلى السطح أو الظاهر ، إلا أنّ اللفظة الأكثر استعمالاً والتي تدلّ دلالة واضحة على المتلقّي هي لفظة (**السامع**) سواء أكان سامعاً حقيقياً أم افتراضياً ضمناً .

إن المصطلحات المتعدّدة مثل : **الاستقبال ، والاستجابة ، والتأثير ، والقراءة** ، هي مصطلحات دقيقة يحمل كل منها معناه المرتبط دوماً بالقارئ ، غير أنّ المصطلح المتداول هو مصطلح التلقّي والذي يدلّ على أنّه ((بمفهومه الجمالي ، ينطوي على بعدين : مُنْفَعِلٍ وفاعلٍ في آن واحد ، إنّهُ عملية ذات وجهين ؛ أحدهما : الأثر الذي ينتجه العمل في القارئ ، والآخر : كيفية استقبال القارئ لهذا العمل أو استجابته له)) كما أن التلقّي هو ((النظرية الأدبية التي تضم العناصر الأخرى في رباط قوي ، هذا بالإضافة إلى أنّ مصطلح التلقّي أكثر شيوعاً واستقراراً في الأوساط النقديّة ، وهذا يرجّح كفته أكثر من المصطلحات الأخرى))

التلقي عند النقاد العرب القدامى

إن النقاد العرب القدامى قد ميّزوا بين إلقاء النص وإرساله ، وتلقيه ، أو استقباله ، فأثروا الإلقاء والتلقي وعدّوهما فناً خاصة فيما يتعلق بفنّ الخطابة ، وبالتالي فإنّ النص يفقد جماله وقيّمته إذا كتب ، كون التأثير من جانب الملقّي شفاهة يكون أكثر ، لوجود ميزة التفاعل النفسي بينه وبين المتلقي/السامع ، لذلك كانوا يقولون : (فلان لا يُلقى بالأّ لما يُقال) ، يعنون أنّ المتلقّي لم يتفاعل نفسياً مع ما يقوله الملقّي ، فكان الإلقاء لديهم مرتبط باستحضار القلب ، وبذلك اهتموا بالتلقي .

رواد النظرية في الغرب .

جمالية التلقي أو مدرسة كونستانس الألمانية تعدّ جامعة لكلّ المناهج والمدارس الداعية إلى الاهتمام بالمتلقي أو القارئ بفضل جهود روادها العاملين على نشر أفكارهم ومبادئهم النظرية والتطبيقية ، ويمثل (ياوس ، و إيزر) اتجاهين مختلفين مؤتلفين مكوّنين لجمالية التلقي المنقسمة إلى اتجاهين أساسيين هما :

الأول : اتجاه ياوس في نظرية (جمالية التلقي أو الاستقبال) .

والثاني : اتجاه إيزر في نظريته الخاصة بمصطلح (التأثير) .

وإذا كان التلقّي والتأثير اتجاهين مختلفين ، فإنّه من المستحيل الفصل بينهما ، إذ أنّ التأثير يخصّ النصّ ، والتلقّي يخصّ القارئ ، " والتقاء النصّ والقارئ هو الذي يخرج العمل الأدبي إلى الوجود ، وهذا التلاقي لا يمكن تحديده أبداً على وجه الدقّة " .

ولا يمكن تجميع المعنى الذي يشترك القارئ في تكوينه إلا من خلال تفاعل هذا القارئ مع دلالات النصّ المفتوحة والمتعددة ، فيكون الاتجاه من القارئ إلى النصّ ، ومن النصّ إلى القارئ في إطار عملية التفاعل المتبادل ، " وهذا التفاعل بالضبط هو الذي منع جمالية التلقّي أن تكون نظرية للتلقّي الخالص ، أو نظرية للتأثير الخالص ، ومنعها من التركيز على النصّ وحده ، أو التركيز على المتلقي وحده ، فكانت في الوقت نفسه تنطلق من النصّ ومن المتلقّي ، وتحاول الإمساك بالتفاعل القائم بينهما ؛ أي بين التأثير والتلقّي " .

كما يمكننا اعتماد دلالات التأثير الذي يمارسه النصّ على القارئ من خلال الإدراك الجماليّ الذي يسبقه إدراك حسيّ وانفعال جماليّ ، وما حديث ابن طباطبا العلويّ عن اللذتين؛ الحسية والجمالية إلا اهتمام منه بالنصّ وتأثيره على القارئ .

أفق التوقع وكسر أفق التوقع .

مفهوم **أفق التوقع** "لا يتعامل مع جزئيات في النص الأدبي فقط، وإنما قد يشتمل النص كله فيما إذا كان منسجماً مع أفق توقع القارئ أم لا". من هنا نستطيع القول بأن العمل الأدبي يضع القارئ أمام اختبار تجربته الجمالية، إذ قد يتطابق أفق توقع القارئ مع النص الأدبي فيحصل انسجام، وربما لا يكون هناك أي تطابق أو انسجام، وعدم التطابق هذا يسمى عند يابوس بالمسافة الجمالية.

إن **لمفهوم كسر أفق التوقع** جذوراً قديمة تعود إلى النقد العربي القديم، لكن هذا المصطلح شاع في الدراسات النقدية الحديثة التي ارتبطت بنظرية التلقي التي اتخذت من القارئ محوراً رئيساً في دراسة النص الأدبي والدراسات النقدية الحديثة، فاختلقت النظرة القديمة التي تتخذ من القارئ مستهلكاً للنص، وسادت بفعل هذه النظرية مفاهيم جديدة تتخذ من القارئ منتجاً للنص أو متفاعلاً مع النص وانتهاء سلطة النص على القارئ وأصبح للقارئ سلطة على النص أيضاً، إذ يعمل القارئ على الدخول إلى عمق النص وفك شفرته وبفعل هذه الرؤية " ظهرت بعض المسميات منها :

المفاجأة والتوقع والانتظار الخائب أو المحيط، والانحراف، والصدمة والفجوة والفراغ والتوتر ومسافة التوتر وأفق التوقع، وكل هذه العناصر ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمشاركة القارئ في استخراج خبايا النص والوقوف عند المدهش والمثير فيه، ولذلك لم يعد دوره مقتصرًا على ملامسة سطح النص وإنما غدا دوره كامناً في الكشف عن أعماق النص بشكل يجد تفاعلاً خلاقاً بين النص والقارئ"، وظهرت مسميات لمصطلح أفق التوقع منها ((الأفق الأدبي)) ، و((أفق الانتظار)) ، وغيرها من المصطلحات